الاسلام والعالم

— ٢ —

بقلم : الاستاذ عبد الرزاق العائش

وفي سنة ٦١٥ م استولى الفرس على بيت المقدس وسنة ٦١٨ فتحوا الاسكندرية ، واكتسحوا مصر السفلى فرحب بهم المصريون والسوريون لما بينهم وبين جندهم العرب اللخميين من رابطة الوطن والعادات . فبثوا تحت نيرهم عشر سنوات حتى استعرت الفرس بثورات اهلية شغلت ملكها عن استبقاء مستعمراته الجديدة . فاغتنم هرقل تلك الفرصة وحمل عليهم فاخرجهم من مصر والشام واسترجع القطرين الى حوزة الروم في حرب طال أمدها ولم تكد تنتهي حتى تحمل المسلمون على الشام ومصر والعراق كما هو مشهور .

فاذا نظرنا الى أسباب تدهور دولتي الروم والفرس وازدهار دولة الاسلام نظرة فلسفية وجدناها أسباباً طبيعية تهيأت لها عواملها . اذ من المقرر ان للدول ادواراً أربعة كما لسائر الكائنات . الدور الأول التولد والظهور ؛ والثاني دور النمو والصعود ؛ والثالث دور الوقوف ، والرابع دور الهبوط .

ومثل هذه الادوار كسلسلة كلما انتهت دولة الى الحلقة الرابعة منها ابتدأت غيرها من حيث انتهت هي . ولهذا قال بعض المحققين (نهاية قوم بداية آخرين) إلا انه ليس لهذه الادوار مدد محدودة تعيش بها الدول ، بل هي تطول وتقصر بنسبة ما يصادف كل دولة من الشؤون والمناسبات الطبيعية والزمانية ؛ بالاضافة الى كل دور من الادوار . فقد تسرع دولة بالصعود ولكنها تبطئ بالوقوف او الهبوط او بالعكس .

ومما لا شك فيه ان الحضارة اثر من آثار العلم يترقى بترقي الدول ويتدنى بتدنيها ، وبعبارة أخرى يتولد في احضان الدول ويشاركها في أدواوها ثم يتلاشى بتلاشيها .

اذا تمهد لنا هذا ونظرنا الى تاريخ دولتي الفرس والرومان قبيل ظهور الاسلام ، علمنا انهما كانتا في دور الهبوط ، وان ما كانتا فيه من ضروب الحضارة كان آيلاً الى الضعف والزوال بضعفها وزوالها . ومع هذا فقرائن الحال يومئذ كانت تدل على ان قوتها الذاتية على ضعفها كانت اشد صولة من قوى الامم والشعوب المجاورة لها ، فتكفلت لها بحفظ ذلك السلطان الواسع الاكناف ، والملك الشاسع الاطراف من تسلط قبائل المشرق ودولته ، كالترك ، والتتر ، والمغول ؛ والهنود . وامم الغرب الشمالية كالغال (فرنسا) والجرمن ، والنورمان وقبائل الصقالبة . هذا مما يدل على ان بقائها في هذا الوجود متفرقتين او دولة واحدة كان مضموناً لمدة أطول من مدتها التي انتهت بظهور الاسلام واكتساح المسلمين لملكها العظيم . وذلك لعدم تهيؤ سواها من الامم غير العرب يومئذ للحلول محلها من الوجود . لأن التأريخ لم ينبئنا عن ظهور هذا الاستعداد في أمة من الامم قبيل ظهور الاسلام ، وإلا لظهر جلياً ابان الفتح الاسلامي الذي بلغ أقصى ما ترمى اليه همة الفاتح ولم يصادف في سبيله نهضة جديدة عند الامم القديمة تنازعه الغلب وتشاطره الملك والسلطان على الارض .

ومهما تكن الاسباب التي تضمن حياة تينك الدولتين مدة أطول لولا ظهور الاسلام .. فان ما ابنته آنفاً سنة طبيعية من سنن الوجود الاجتماعي لابد معها من ادالة دولتيها لمن ينازعها البقاء ويغلبها عليه ولو بعد حين .

وأما الحكم على من يكون ذلك المنازع من الأمم ؟ وهل كان يأتيهم من قبل المشرق أو من قبل المغرب ؟ فحكم لا يتيسر تطبيقه على حقيقة ظاهرة ؛ ولا يمكن اجراؤه مجرى القياس بين حال الامم قبيل ظهور الاسلام وحالها بعده ، لان الفتح الاسلامي قلب اوضاع الدول ، وغير مجرى الافكار بين شعوب الأرض وعنه انبعثت غزوات التتار في المشرق ، وحركة الحروب الصليبية في المغرب . فمن الصعب ان نعلم من الامم الغربية أو الشرقية تكون السابقة للحلول محل الفتح الاسلامي في ممالك الفرس والرومان لولا ظهور دولة الاسلام . . الا اذا اعتبرنا سبق التتار لتدويخ الممالك بعد امتداد الاسلام قياساً يصح عليه بناء حكم السبق للمشرق دون المغرب ، لا سيما وان نهضة التتار كانت نهضة عجيبة ، اندفع تيارها من وراء جبال الپامير فاجتاح ممالك الاسلام التي كانت للفرس والرومان في آسيا ، وكاد يتجاوز

الى اوربا . ولو لم يكن في نفوس المسلمين يومئذ — على انحلال عصبيتهم وتفرق دولتهم — بقية من منعة واعتزاز بصولة الدين على النفوس تقوم بها على منازعة التتار البقاء وبغلبهم عليه ثم ردهم الى حيث جاؤا وهم من حملة القرآن وانصار الاسلام .. لتمكن سلطان التتار في هذه الممالك وربما تجاوزها من وراء أسوار القسطنطينيه الى اوربا كما تجاوز جنكيز خان اورال الى روسيا

اذا تقرر هذا نتج لدينا ان مآل دولتي الفرس والرومان كان الى الزوال وان نهايتها الى مدة اطول من مدتها التي انتهت بظهور الاسلام ؛ كان مضموناً بعدم استعداد معاصريها من الامم للحلول محلها من الوجود ، وان ما كانتا فيه من ضروب الحضارة كان يتدرج معهما في سلم الانحطاط ، فتكون حياتهما الطويلة في دور الانحطاط علة لتلاشي تلك الحضارة فلا تتمكن الدول التي تحل محلها بعد من احياء ما اندثر من آثار حضارتها بعد زمان طويل . وربما امتد الى الآن فكان العالم كما كان .

الفصل التالي : -

كيف كانت حال العالم لو لم يفتحه المسلمون ؟

هذه المسألة من أصعب المسائل التي تشغل فكر العاقل بل ومن اعصى القضايا على الباحث ؛ وافرها من وجه الحكم ؛ وازلجها عن يد الاتقان . وذلك لان الباحث لابد له ان يتدس في جوف الدهر ، ويصعد في سلم الايام بضعة عشر قرناً ، يحبكها بنظرة ويدمجها بلمحة ؛ ثم يشرف من رأسها على مابين يديه وما خلفه متطلعاً في ثـ هـوة الادهار — متخرصاً على الحوادث وهي بعد في اصلاب الايام .

كل احتمال جائز في جواب هذا السؤال ومن ذا الذي يعلم ما ذا يأتي به الدهر ؟ فربما كانت الدولة الرومانية الشرقية باقية الى الآن ، وربما كانت دولة الفرس قائمة الى يومنا هذا وربما كان خلف الفرس التتار ، وخلف الروم الروس ؛ ومن يدري فقد يكون خلفها غير التتار وغير الروس ، وان تكون قامت دول ليست في الحسبان ؛ ولا سبيل للحكم في هذه المسائل بل لا سبيل الترجيح في اكثرها لان ريح الحوادث بولد من تحت مراوح الايام على حين لا ينتظر . والمنطق في وادو تصاريف الزمان في واد . فلا يقتحم هذه الغمرة الا راسخ بقي يطالع

كل دور من ادوار الاسلام حتى يتنصب لديه تاريخ هذه الملة حياً ويتمثل لعينيه شخص الاسلام بشراً سوياً ، وصار كأنه معاصر كل قرن من هذه الاربعة عشر قرناً . ومع هذا فهيهات ان يطأ هذه العتبة ؛ او يطاول تلك المرتبة الا من كان له من طول الباع وبعد النظر خصوصاً في هذه المسائل . ولا عجب ان احجمت عنها ومن كان مثلي معروفاً بقصر الباع وقلة البضاعة ... ومع هذا اراني مندفعاً الى خوض هذا البحث بدافع لااستطيع كبح جماحه ، فاخذت اتشبث بالحدس والتخمين تارة وبالادلة والبراهين تارة لعلي اصل الى النتيجة المطلوبة ، التي هي غاية كل باحث يروم الوقوف على الحقيقه دون ميل مع الهوى او انقياد الى العاطفة .

لقد اتضح تدلي الدولتين الرومانية والفارسية للسقوط قبيل فجر الاسلام ، وتحقق ان مجيء الاسلام كان قاضياً عليها بحيث لو لم يظهر هذا الدين لجاز ان تمتد اجلها بعد مدة مديدة واذا زالت الدول عفت آثار مدنيتها الا قليلا . وان لم تحدث حوادث خارقة للعادة في اثناء انحطاط الدول وتلاشي الحضارات تتناشها من وهدتها ، وتجذبها بضبعيها فلا يرجى انتشالها من نفسها . وعلى هذا فظهور الاسلام الذي كان بلا شك حادثاً خارقاً للعادة اثناء انحطاط الدولتين — هذا بحسب اعتقاد اهله او بحسب نظر المحكمين والمؤرخين — قد كان الوسيلة الكبرى لتجدد الحضارة وارتقائها وانماشها بعد اشفائها ، واعطاء الكون حياة جديدة امتزجت بخفة الارواح العربيـة ، ورشاقة الحركات المضرية واليمانية ، واسرع دبيبها في الارض بسخونة تلك الامزجة فكأن العالم كان في سبات عميق فانتبه بصدمة هائلة كادت تبعث من في القبور فقام نشيطاً ، وهب خفيفاً ، واستأنف حركة واستجد عزماً وهمة ، او هو — أشبه بمريض وقع له حادث فجائي اثناء مرضه فحصل له تأثر عصبي خارقاً للعادة فصح ما به من مرض .

نعم : ان الاسلام هو الذي كان المشرع في ترقي المدنية الحاضرة وكان السلم اليها ، وهو الواسطة الكبرى بين مدنية اليونان وعلوم الشرق كفارس والصين . وبين المدنية الاوربية المبنية على قواعد تلك . ولولا ما اتاح الله من هذه الواسطة وما فاجأ به العالم الروماني في ابان انحلاله من طلعة الاسلام لجاز

ان يطول عهد الانحلال قروناً متوالية وربما بلغ هذه الايام، وكانت الحضارة صاحبة للدولة متقلصة بتقلصها؛ ولا يعلم متى يقيض لها ان تتجدد ومتى يؤذن لهذا المتشي عليه بالافاقة.

ولا احتاج في تأييد هـــذا الرأي الى شهادة اوربي. فالمحققون منهم مجمعون على اننا نحن الوسط بين الاولين والآخرين وان المدنية والعلوم وصلت اليهم من طريقنا، ولولانا لكانت الآن في الطريق، او كانت بعد لم تزم حقائبها للسير وزد على ذلك سبباً من أسباب الترقي كان الاسلام باعثه هي — المناظرة التي اوجدها بينه وبين النصرانية، والحروب التي وان سالت فيها جداول من الدماء فقد اسالت جداولاً من المداد، وافادت العالم الفائدة التي لابد منها عند الاحتكاك. ولا يخفى ان الحروب والمعارك لا تنحصر في الطعن والضرب بل قلما جاء سيف الا مقروناً بقلم.

ومما يرجح انه (العالم) كان يبقى على حاله ولو لم يظهر الاسلام هو — جزيرة العرب، اذ يبعد بل يكاد يستحيل ان يكون اهلها فتحوا الخافقين في ثمانين سنة لو لم يسيروا بدعوة القرآن ويحملوا امراً خارقاً للعادة ... والأشبه بهم ان يكونوا بقوا على حالهم رحلاً بداة تظلهم الآكام والخيام، لا يقصدون فتحاً خارج بلادهم اذ لابد لذلك من امر عظيم، والامر العظيم لابد له من دولة عظيمة متمدنة، والدولة المتمدنة ليسوا منها وليست منهم، كذلك لا يقصدهم احد من الفاتحين لتسور جزيرتهم بالبحر من الجهات الثلاث وبالصحارى والمفاوز من الجهة الرابعة وهي المفاوز التي تحاماها الاسكندر فكيف غيره؟ مضافا الى هذا ان دول المغرب كن الى اواخر القرن الخامس من الهجرة في شغل شاغل عن شؤون المشرق، لم يدع لدولة منهن مجالا للتفكر في تجاوز حدود اوربا لغزو ممالك المشرق وتوسيع نطاق الملك. ولو انبعث في نفس اى دولة غربية يومئذ باعث الرغبة بالفتوح خارج حدود اوربا، لكانت اولى الممالك بالتدويخ ... بقايا مملكة الرومان الشرقية اولا — لكونها عقبة بين حدود اوربا وبين المشرق. ثانياً — لكونها كانت مهددة بالسقوط في ايدي جيوش الشرق وغزاته، وانما نبه دول الغرب بعد الى الهجوم على ممالك الشرق باعث مخصوص ما كان ليوجد فيهن لولا وجود الاسلام، ألا وهو — التعصب الذى هزت اوتاره تلك الدعوة العامة في القرون المتوسطة للهجرة، فاهتزت له ارجاء القارة الاوربية فقذفت بجيوشها الجراوة على اطراف الشرق الاسلامي على حين زهو تمدنه وازدهار حضارته؛ فغالوه في مناحيه وملكوا بعض نواحيه.

ثم لم يلبث ان استقر بهم المكان واطلقوا جياد الفكر والتأمل فيما كان مجاوروهم عليه، من عدل شامل، ونظام باهر وآداب عالية، وهمم سامية، وعلم نام، وحياة طيبة، حتى انفعلت نفوسهم بمؤثرات هذه المشاهد، واسرعت اليها منهم ملكات التقليد. فنمت واستغلظت واستوت على سوقها، بعد ان عاد كل فريق منهم الى موطنه حاملا دعوة العلم بعد دعوة التعصب آيباً بذخيرة الحياة المدنية التي هي اشرف مغنم غنمه الغرب من الشرق. وكان سبباً لانبعاث روح النهضة الحيوية في العالم الاوربي الذي اخذ من ذلك الحين يصعد من حيث يهبط العالم الشرقي، حتى فعل في هذا الوجود ما فعل وبلغ من الرقي الغاية التي لم تبلغها من قبل الدول.

وما من احد ينكر هذا الامر — الا كمثل القائل للنهار يا ليل — بعد ان شهد به علماء التمدن الحديث ومؤرخوهم واثبته الحس والعيان ... اذ من المقرر ان الحضارة اثر من آثار العلم — كما قدمت — ومما لا يمترى فيه اثنان ان اوربا كانت في عهد التمدن الاسلامي على حالة ان لم تقرب من الهمجية فانها ليست على شيء من الحضارة، منذ اضاء في ربوعها نور العلم الذي اقتبسته من مخالطة المسلمين في الحروب الصليبية، وتلقاه افرادها من علماء الأندلس ومدارسها، ثم بالسعي المتواصل بعد هـذا في استخراج كنوز المكاتب العربية — وحشرها الى مكاتبهم الغربية والعناية بدرس اللغات الشرقية — واخصها العربية — لترجمة ما حوته تلك الكتب من الفنون، واخصها — الشريعة، والفلسفة والجغرافية، والتاريخ والطب. حتى ليوجد عندهم من الكتب العربية الى الآن ما لا يوجد في مكاتب الشرق. بل وما لا يعرفه الشرقيون الآن له اسماً، لا كتنازه في مكاتب الغرب من عدة قرون. منها ترجم الى كثير من لغات اوربا، ومنها ما طبع باللغة العربية نفسها؛ وليس هذا — كل ما اضاعه المسلمون من آثار علومهم وحضارتهم —

فهل يظن احد ان من العبث اعتناء الاوربيين الى هذه

في عيد فيصل

لايخفى على قراء البيان أن الاستاذ هاشم عطية ذو نزعة هاشمية يتمثل فيها الولاء والعواطف النبيلة ؛ ففي خريدته العصماء هذه يعرب لنا عن فيض شعوره ورقة عواطفه للبيت الهاشمي الرفيع هذه السلالة العربقة التي ما فتئت تدافع عن مجد العرب وتسعى لرفع كلمتهم واعلاء شأنهم ؛ فهي قد علمتنا بذلك دروساً في النضال في سبيل الشرف والمجد والثبات في سبيل العقيدة والمبدأ هذه الدروس سوف لا ينساها العرب على مر الايام [البيان]

بين الربيع وعيدك المتمثل ... عدة بتجديد الشباب المقبل
صنوان أنت سحاب غيث مسعد ... للعتفى ورجاء كل مؤمل
وتملت بناه منك فتممت ... رشي الرياض على ضفاف الجدول
تتباريان على البرية في الندى ... وان استحال حياه لم تتحول
من كان يطرب للسماء مضيئة ... والبدر مؤتلق السنا لم يأفل
فلينظرن الى محيا فيصل ... والتاج فوق جبينه المتهلل
ملك أحبته الرعية حبها ... للورد من عذب المناهل سلسل
يبدو فترمقه العيون وتجتلي ... من نوره قسمات غازي الأول
قد درك أنت فرع دعامة ... نظمتك في نسب النبي المرسل
ان الفرات وكان قدما مشرعا ... لأعزة صيد ومجد أطول
شهدا الأوائل من جدودك اذ هم ... ملح الأنام وصدر ذاك المحفل
تتجاذب النعماء في أكنافهم ... آمال سائلهم وان لم يسأل
وتطالع الآفاق من آثارهم ... نعم سوابغ أو كتائب جحفل
ملكوا فلا ذا الملك من أبوابهم ... بأشد من ركن الزمان وأثقل
وسطوا وكف الدهر عن خلوانه ... ورضوا فرف الظل للمتقيل
فاعد لهذاك الفخار وزده من ... كرم وفيض من سماحك مسبل
بغداد يا مهد الحضارة والحجا ... والمجد من ماض لديك مؤثل
اليوم عيدك فانعمي بملك ... وأغر من كرم الزمان محجل
أني نزلت فلا تظني غيره ... من أهلك السمحاء أكرم منزل
في ظل ذي التاج المعظم راتعاً ... أمسى وأصبح في ربيع مخضل
لاأشتهي عنك البراح وليس لي ... عما صنعت بمهجتي من معدل
كم فيك من فن وكم لك من يد ... وصلت من الاحسان مالم يوصل
فلسوف أنظم فيك غر قصائد ... كالدر في عقد عليك مفصل
أزجي بها حر الثناء بفيصل ... ووصيه المرجو لحل المعضل
شرف الأرومة والذكاء المحض ... والكرم العريض وحكمة المتعمل
جمعت له في رقة السلسال من ... صفو الغمام بروق عين المجتلي
فالنيل في عيد الفرات مهنئ ... باسمي وشعري ليس بالمتعمل
لكنه حوك القلوب وصورة ... من نبل عاطفة الوفي المجمل

الدرجة بالكتب العربية ، والدأب أجيالا طوالا في التنقيب عن نفائسها وحشرها الى مكاتبهم ؟ وما اظن احداً يقول عبثاً ، إلا ان ذلك لغاية درسها واستخراج خباياها ، التي اعانت اهل أهل المغرب على معرفة ما كان مجهولا عندهم من قبل ، ولولا هذه الكتب لظل الاوربيون يجهلون — كم جهل الرومانيون من قبل — ان كانت ثمة قارة في الوجود غير المشهود لهم ، كقارة امريكا والاوقيانوسية او عالم غير من عرفوه من اهالي قارتهم وبعض قارتي آسيا وافريقيا . وليراجع من يشاء جغرافية الادريسي التي لم تصلنا في هذه السنين المتأخرة الا عن طريق اوربا ، وهي مطبوعة في مطابعها ... يرى ان العرب اكتشفوا امريكا وجزائر المحيط قبل ان يكتشفها الاوربيون بنحو خمسمائة سنة . فلولا حصول امثال هذه الكتب عند الاوربيين واخذهم غرائب العلوم من كتب المسلمين لما تأتي لهم الوصول الى هذه المرتبة السامية في المعارف والاستحواذ على هذا السلطان الواسع في الأرض .

ورب قائل ان التمدن الاوربي اوما ظهر في عصر شارلمان ملك فرنسا ثم انطفأ بعد ذلك حتى ايام الحروب الصليبية التي لم تنبعث عن التعصب الديني في ذلك العصر . بل عن تسابق الكنيستين الشرقية والغربية الى القبر المقدس ... فقول فيه نظر لانا لو سلمنا بظهور نهضة خفيفة في اوربا على عهد شارلمان .. فمنشأها اتساع سلطان ذلك الملك الذي كان وجود مثله في اوربا في ذلك العصر فلتة من فلتات الدهر انقضت بانقضاء ايامه وانصرمت بانصرام ملكه ، فلا يبنى عليها حكم البتة .. وانما الحروب الصليبية هي التي يبنى عليها ذلك الحكم مهما كانت أسبابها واثبت انها التعصب . ولا حاجة بي لبيان الأدلة لانه ليس من لوازم البحث

البصرة — يتبع — عبد الرزاق العائشي